# مقدمة

## تاريخ مقتضب للحرب الباردة ومعاداة الشيوعية

***خوفنا من أن تتمكن الشيوعية يوماً ما من الاستيلاء على معظم العالم قد أعمانا عن رؤية حقيقة أن معاداة الشيوعية قد فعلت ذلك.***

*مايكل بارنتي* [١]

في أوائل أيام القتال في فيتنام خاطب ضابط من الفيتكونغ أسيره الأمريكي قائلاً: «كنتم في نظرنا أبطالنا بعد الحرب. نحن نقرأ كتباً أمريكية ونشاهد أفلاماً أمريكية، وكانت العبارة الشائعة بيننا في تلك الأيام هي «أن يكون المرء ثرياً وحكيماً كالأمريكي»، ماذا حدث»؟ [٢].

كان يمكن أن يُطرح على الأمريكي سؤال مماثل من قبل مواطن من غواتيمالا، أو من أندونيسيا، أو من كوبا خلال السنوات العشر السابقة، أو من قبل مواطن من الأوروغواي، أو تشيلي أو اليونان في العقد اللاحق من السنين. إن حسن النية والصدقية اللذين كانت الولايات المتحدة تتمتع بهما على الساحة الدولية على نحو ملحوظ عند نهاية الحرب العالمية الثانية قد تبددا في بلد بعد الآخر، ومن خلال تدخل بعد الآخر. أما فرصة إعادة بناء العالم الذي دمرته الحرب، من أجل إرساء أسس للسلام والازدهار والعدل، فقد انهارت تحت الوطأة المروعة لمعاداة الشيوعية.

كانت هذه الوطأة تتراكم منذ بعض الوقت، والحقيقة أنها كانت تتراكم منذ اليوم الأول للثورة الروسية. ومع حلول صيف العام ١٩١٨ كان ثمة وجود لنحو ١٣,٠٠٠ جندي أمريكي في اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية الوليد. بعد عامين،

وبعد سقوط آلاف الخسائر البشرية، رحل الجنود الأمريكيون بعد أن أخفقوا في مهمتهم وهي «وأد» الدولة البلشفية في المهد، على حد قول ونستون تشرشل [٣].

كان تشرشل الشاب آنذاك وزير الحرب والطيران في بريطانيا العظمى. وهو الذي تولى، على نحو متزايد، إدارة غزو الاتحاد السوفييتي من قبل الحلفاء (بريطانيا العظمى، والولايات المتحدة، وفرنسا، واليابان والعديد من الدول الأخرى)، التي آزرت «الجيش الأبيض» المناوئ للثورة. بعد انقضاء سنوات، سيحل تشرشل المؤرخ وجهات نظره في هذا الشأن الوحيد لتطّلع عليها الأجيال اللاحقة:

«هل كانوا (أي الحلفاء) في حالة حرب مع روسيا السوفييتية؟ بالتأكيد كلا، لكنهم كانوا يطلقون النار على الروس بمجرد رؤيتهم. كان موقفهم موقف غزاة على الأرض الروسية. سلحوا أعداء الحكومة السوفييتية. حاصروا موانئها وأغرقوا بوارجها. كانوا شديدي الرغبة في إسقاط هذه الحكومة وخططوا لإسقاطها. لكن الحرب - مسببة للصدمة! والتدخل - عارٌ! كانوا لا يفتؤون يكررون القول إن المسألة بالنسبة لهم مسألة عدم مبالاة بكيفية تسوية الروس لشؤونهم الداخلية. كانوا غير منحازين - مرحى!» [٤].

ماذا كان في الثورة البلشفية مما أرعب إلى هذا الحد أقوى دول العالم؟ ما الذي ساقها إلى غزو بلد كان جنوده إلى وقت قريب يقاتلون معهم جنباً إلى جنب لمدة أكثر من ثلاث سنوات ولحقت بهم خسائر بشرية تفوق خسائر أي بلد آخر في كلا جانبي الحرب العالمية؟.

كان البلاشفة قد بلغ بهم التهور حد عقد صلح منفرد مع ألمانيا للنأي بأنفسهم عن حرب اعتبروها حرباً إمبريالية وليست «حربهم» بأي حال، وليحاولوا إعادة بناء روسيا المنهكة إلى حد مرعب والتي سادها الدمار.

ولكن البلشفيك أظهروا جرأة «أكثر بكثير عندما أطاحوا بنظام رأسمالي إقطاعي» وأعلنوا قيام أول دولة اشتراكية في تاريخ العالم. كان ذلك وثيقة غرور

شديد إلى حد لا يصدق. وكانت هذه هي الجريمة التي ترتب على الحلفاء أن يعاقبوا مرتكبيها، والفيروس الذي كان لابد من القضاء عليه خشية أن يمتد إلى شعوب الحلفاء.

لم يحقق الغزو هدفه المباشر، ولكن عواقبه كانت مع ذلك عميقة واستمرت حتى يومنا هذا. لقد قال البروفسور د. ف. فليمنغ، مؤرخ الحرب الباردة في جامعة فاندربليت Vanderbilt ما يلي:

«بالنسبة إلى الشعب الأمريكي لم يكن ثمة وجود للمأساة الكونية الناجمة عن التدخلات في روسيا، أو أنها كانت في نظره حادثاً غير ذي أهمية طواه النسيان منذ زمن طويل. أما بالنسبة للشعوب السوفييتية وقادتها فقد كانت تلك الفترة زمناً من القتل غير المحدود والنهب والسلب والأوبئة والمجاعة والمعاناة التي لا حدود لها بالنسبة لعشرات الملايين. إنها تجربة كانت تحرق روح أمة ولم يكن بالإمكان نسيانها لأجيال، هذا إذا أمكن نسيانها. كذلك كان مبرر النظام السوفييتي القاسي خلال سنوات هو فقط الخوف من أن تعود الدولة الرأسمالية لإكمال العمل الذي بدأته. فلا غرابة أن رئيس الوزراء خروتشوف أعاد إلى ذاكرتنا في خطابه الذي ألقاه في نيويورك يوم ١٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٩ تلك التدخلات، «أي الزمن الذي أرسلتم فيه جنودكم لإخماد الثورة»، على حد قوله [٥].

في تقرير للبنتاغون صدر في عام ١٩٢٠ جاء ما يلي، وهو ما يعتبر مؤشراً على عدم حساسية القوة العظمى: «إن هذه الحملة قدمت لنا أروع الأمثلة في التاريخ عن التعامل الشريف البعيد عن الأنانية.. في ظروف صعبة للغاية من أجل أن نتمكن من مساعدة شعب يكافح لتحقيق حرية جديدة [٦]. يخبرنا التاريخ ماذا كان من شأن الاتحاد السوفيتي أن يبدو الآن لو سُمح له بأن يتطور بطريقة (عادية) من اختياره. بيد أننا نعرف طبيعة اتحاد سوفيتي هوجم في مهده ونشأ وحيداً في عالم بالغ العداء له، ومن ثم نجح في البقاء على قيد الحياة حتى بلغ سن اليفاعة ثم اجتاحته

آلة الحرب النازية بمباركة من الدول الغربية. إن ما ترتب على ذلك من انعدام الأمن والمخاوف أدى لا محالة إلى تشوهات في الطبع شبيهة بما يصيب فرداً نشأ بطريقة مماثلة مهددة لحياته.

نحن في الغرب لم يُسمح لنا إطلاقاً أن ننسى العيوب السياسية (الحقيقية منها والزائفة) للاتحاد السوفييتي، وفي الوقت ذاته لم يجرِ تذكيرنا إطلاقاً بالتاريخ الكامن خلف هذه العيوب. كانت الحملة الدعائية ضد الشيوعية قد بدأت قبل التدخل العسكري. وقبل نهاية العام ١٩١٨ كانت تعابير من مثل شريان «التهلكة الحمراء»، «الهجوم البلشفيكي على المدينة» و «ظهور خطر الحمر على العالم» قد أصبحت تشاهد دائماً على صفحات جريدة «نيويورك تايمز».

خلال شهري شباط (فبراير) وآذار (مارس) ١٩١٩ عقدت لجنة قضائية فرعية تابعة لمجلس الشيوخ الأمريكي جلسة رويت خلالها «قصص عديدة عن البلشفيك المرعبين».. إن طبيعة بعض الشهادات التي قدمت في الجلسة يمكن أن يكون مقياسها العنوان الرئيس الذي ظهر في جريدة «نيويورك تايمز» بتاريخ ١٢ شباط (فبراير) ١٩١٩ كالتالي:

**وصف الأمور المرعبة تحت الحكم الأحمر.**

**عضوا مجلس الشيوخ أ. سيمونز و و. و. ويلش يرويان لأعضاء المجلس أعمال البلشفيك الوحشية - تعرية النساء في الشوارع - الناس من كل الطبقات ما عدا الحثالة يتعرضون للعنف على يد الغوغاء.**

كتب المؤرخ فريدريك لويس شومان ما يلي: «كانت النتيجة الصافية لجلسات الاجتماع هذه هي رسم صورة لروسيا السوفييتية على أنها نوع من البلد التي يسودها الهرج والمرج، ويقطنه عبيد محبطون كلياً، ويعيشون تحت رحمة منظمة مؤلفة من المجانين القتلة الذين لا غاية لهم سوى تدمير كل أثر للمدنية والعودة بالدولة إلى زمن البربرية» (٧).

إذا أخذنا الأمور من الناحية الحرفية فما من رواية عن البلشفيك كانت مغرقة في اختلاقها أو غرائبيتها أو في تشويهها بحيث تطبع ويصدقها الناس على نطاق واسع - بدءاً من تأميم النساء وأكل الأطفال (على نحو ما كان الوثنيون الأوائل يعتقدون بأن المسيحيين مذنبون بالتهام أولادهم، وهذا الاعتقاد ذاته كان قائماً بالنسبة لليهود في العصور الوسطى). إن ما يُروى عن أن النساء بكل المعاني الملتبسة والفاقعة القائلة إنهن ملك للدولة، وعن الزواج الإجباري «وحرية الحب»، الخ.. «كانت تنشر عبر البلاد من خلال ألف قناة» حسب قول شومان. «وهذا ربما كان الأكثر تأثيراً من أي شيء آخر في تصوير الشيوعيين الروس في أذهان معظم المواطنين الأمريكيين كمنحرفين مجرمين» [٨] إن هذه الحكاية ظلت تلقى رواجاً كبيراً حتى بعد أن اضطرت وزارة الخارجية الأمريكية أن تعلن أن هذا كلام مزيف (إن القول بأن السوفييت يأكلون أطفالهم كان لا يزال مادة للتعليم من قبل جمعية جون بيرش John Birch لجمهورها الواسع على الأقل حتى عام ١٩٧٨) [٩].

مع حلول نهاية العام ١٩١٩، عندما ظهر احتمال هزيمة الحلفاء والجيش الأبيض عرضت جريدة «نيويورك تايمز» على قرائها عناوين وقصصاً كالتالي:

-٣٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٩: «الحمر يسعون للحرب مع أمريكا».

-٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠: «الأوساط الرسمية تصف خطر البلشفيك في الشرق الأوسط بأنه مقبل».

-١١ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠: «يرى مسؤولو ودبلوماسيو الحلفاء احتمالاً لغزو أوروبا».

-١٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠: «الأوساط الدبلوماسية للحلفاء تخشى حدوث غزو لبلاد فارس».

-١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠: عنوان رئيسي على الصفحة الأولى وبعرض ثمانية أعمدة:

«بريطانيا تواجه حرباً مع الحمر وتدعو إلى انعقاد المجلس في باريس».

«دبلوماسيون حسنو الاطلاع يتوقعون غزواً عسكرياً لأوروبا وزحفاً سوفييتياً نحو شرق وجنوب آسيا».

غير أنه في صباح اليوم التالي أمكن قراءة ما يلي:

«لا حرب مع روسيا، والحلفاء سيتبادلون التجارة معها».

- ٧ شباط (فبراير) ١٩٢٠: «الحمر يشكلون جيشاً لمهاجمة الهند».

-١١ شباط (فبراير) ١٩٢٠: «ثمة خوف من أن يقوم البلشفيك الآن بغزو الأراضي اليابانية».

كان مطلوباً من قراء جريدة «نيويورك تايمز» أن يصدقوا أن كل هذه الغزوات قادمة من دولة كانت متشظية على نحو قلّ أن تعرضت لمثله دول أخرى عبر التاريخ، دولة كانت ما تزال في طور النقاهة بعد خروجها من حرب عالمية رهيبة، دولة كانت تعاني من فوضى شديدة من جراء ثورة اجتماعية أصولية في بداية عهدها، دولة كانت في خضم حرب أهلية وحشية ضد قوى تساندها الدول الكبرى في العالم، وصناعاتها التي لم تكن متقدمة أصلاً كانت آنذاك متهاوية، كما أن البلاد كانت تواجه مجاعة أدت قبل نهايتها إلى موت ملايين عديدة.

في العام ١٩٢٠ عرضت مجلة «ذا نيو ربيليك The New Republic» تحليلاً مطولاً للتغطية الإخبارية التي قدمتها جريدة «نيويورك تايمز» للثورة الروسية والتدخل في روسيا. في جملة الكثير مما عرضته المجلة ذكرت أن جريدة «نيويورك تايمز» قالت في العامين التاليين لثورة تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ ما لا يقل عن ٩١ مرة «أن السوفييت كانوا يقتربون من نهاية حبل النجاة أو أنهم وصلوا إلى النهاية فعلاً»[١٠].

إذا كان هذا واقعاً حقيقياً ما عرضته «الجريدة الرئيسية» في الولايات المتحدة فإن المرء يستطيع أن يتخيل بأسىً المادة الساحرة التي كانت تغذي بها بقية الصحف الأمريكية قراءها.

إذن كانت هذه التجربة الأولى للشعب الأمريكي مع ظاهرة اجتماعية جديدة برزت في العالم، وكانت التربية التمهيدية للشعب الأمريكي بالنسبة للاتحاد السوفييتي أن هذا الشيء يدعى «شيوعية». إن الطلاب لم يستفيقوا أبداً من الدرس، كما أن الاتحاد السوفييتي لم يستفق منه.

لقد وصل التدخل العسكري إلى نهايته، ولكن باستثناء وحيد وجزئي يتمثل في مدة الحرب العالمية الثانية، لم تهدأ الحملة الدعائية، ففي عام ١٩٤٣ خصصت مجلة لايف Life عدداً كاملاً من أعدادها للإشادة بإنجازات الاتحاد السوفييتي تجاوزت كثيراً ما كان مطلوباً من جراء الحاجة إلى التضامن في زمن الحرب، إذ إنها ذهبت إلى حد وصف لينين بأنه «ربما كان أعظم رجل في الأزمنة الحديثة»[١١]. غير أنه بعد مضي عامين عندما كان هاري ترومان سيد البيت الأبيض، لم يعد أمام الأخوّة فرصة للاستمرار، ذلك أن ترومان - على أية حال - قال في اليوم الذي تلا الغزو النازي للاتحاد السوفييتي: «إذا رأينا ألمانيا منتصرة علينا أن نساعد روسيا، وإذا كانت روسيا هي المنتصرة علينا أن نساعد ألمانيا، وبهذه الطريقة ندعهم يقتلون من بعضهم البعض أكبر عدد ممكن، ولو أنني لا أريد أن أرى هتلر منتصراً في أي حال من الأحوال»[١٢].

صفحات عديدة من الدعاية استخرجت من المعاهدة السوفييتية - الألمانية لعام ١٩٣٩، وما كان ذلك ممكناً إلا بالتجاهل التام لحقيقة أن الروس أرغموا على توقيع هذه المعاهدة بسبب الرفض المتكرر من قبل الدول الغربية، ولاسيما الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى، أن يوحدوا الصف مع موسكو في وقفة ضد هتلر[١٣]، كما أن هذه الدول رفضت أن تبادر إلى مساعدة الحكومة الإسبانية ذات التوجه الاشتراكي التي كانت محاصرة من قبل الفاشست الألمان، والإيطاليين والإسبان منذ العام ١٩٣٦. لقد أدرك ستالين أنه إذا كان الغرب ممتنعاً عن إنقاذ إسبانيا فمن المؤكد أنه لن ينقذ الاتحاد السوفييتي.

اعتباراً من حالة الفزع من الحمر في العشرينيات من القرن العشرين، وإلى المكارثية في الخمسينيات من القرن نفسه وحتى حملة ريغان ضد «إمبراطورية الشر» في الثمانينيات من القرن العشرين كان الشعب الأمريكي يتعرض لعملية تلقين لا هوادة فيها ضد الشيوعية. كانت هذه العملية ترتشف مع لبن الأمهات، وتتمثل في صور الكتب الكاريكاتورية، وتجد شرحاً لها في الكتب المدرسية، وكانت عناوين الصحف اليومية تطلعهم على كل ما يحتاجون إلى معرفته، ورجال الدين يجدون فيها مادة لمواعظهم، ويتم انتخاب السياسيين على أساسها، وأصبحت مجلة «ريدرز دايجست» Readers Digest غنية بفضلها.

إن الاقتناع الراسخ الذي كان لا محالة أن تولّده هذه الهجمة الدفينة على العقل، هو الاقتناع بأن لعنة ضخمة قد حلت بالعالم، ربما كان مصدرها إبليس نفسه، ولكن بشكل أشخاص غير مدفوعين إلى هذا الاقتناع بالحاجات، والمخاوف، والعواطف ذاتها وبالأخلاقية الشخصية التي تتحكم بآخرين من النوع نفسه، بل هم أناس انخرطوا في مؤامرة دولية بالغة المهارة، أحادية الكيان ومكرسة للاستيلاء على العالم واستعباده لأسباب قد لا تكون دائماً واضحة، ولكن الشر لا يحتاج إلى دافع سوى الشر ذاته. علاوة على ذلك، فإن أي تظاهر من جانب هؤلاء الناس بأن يكونوا كائنات بشرية عقلانية ينشدون عالماً أو مجتمعاً أفضل، هو تظاهر زائف، أو هو تغطية لتضليل الآخرين ومجرد برهان على مهارتهم. إن أعمال القمع والقسوة التي حدثت في الاتحاد السوفييتي هي برهان دائم على إفلاس الفضيلة، وعلى النيات الشريرة لدى هؤلاء الناس في أي بلد كانوا، وبأي اسم اتخذوه لأنفسهم، وأهم من كل ذلك أن الخيار الوحيد المتاح لأي إنسان في الولايات المتحدة هو الخيار بين أسلوب الحياة الأمريكي وأسلوب الحياة السوفييتي، ولا شيء بين هذين الأسلوبين أو أبعد منهما لصنع العالم.

هكذا تبدو الأمور لبسطاء الناس في أميركا، ويجد المرء إنه عندما يجري - ولو قليلاً - سير المتحذلق تحت سطح لغته الأكاديمية يرى التشابه التام بين الأسلوبين.

بالنسبة للعقل الذي تتم تربيته بعناية حتى بلوغ مرحلة الشباب في الولايات المتحدة، فإن حقائق معاداة الشيوعية جلية بذاتها، كما كانت جلية بذاتها سطحية العالم ذات يوم للعقول السابقة، على نحو ما كان يعتقد الشعب الروسي أن ضحايا أعمال التطهير التي ارتكبها ستالين كانوا فعلاً مرتكبي جريمة الخيانة.

إن الشريحة التي قدمناها أعلاه من التاريخ الأمريكي يجب أن تؤخذ بالحسبان إذا أراد المرء أن يصل إلى فهم معقول لشطحات السياسة الخارجية الأمريكية منذ الحرب العالمية الثانية، وعلى وجه التحديد السرد الذي يقدمه هذا الكتاب لما فعلته الأجهزة العسكرية الأمريكية، والمخابرات العسكرية المركزية (CIA)، والفروع الأخرى للحكومة الأمريكية، لشعوب العالم.

في عام ١٩١٨ لم يكن أساطين رأس المال الأمريكي بحاجة إلى سبب لحربهم على الشيوعية سوى سبب الأخطار التي تهدد ثرواتهم وامتيازاتهم، بالرغم من أن معارضتهم كان يتم التعبير عنها بعبارات الاشمئزاز المعنوي.

خلال الفترة التي امتدت بين الحربين العالميتين نشطت الدبلوماسية المسماة دبلوماسية القوارب الحربية الأمريكية في البحر الكاريبي لكي تجعل «البحيرة الأمريكية» آمنة لفرص عمل شركة الفواكه الموحدة «United Fruit»، وشركة و.ر.غريس وشركاه «Grace & Co. R. W»، وفي الوقت ذاته حرصت هذه الدبلوماسية على التحذير من «التهديد البلشفيكي» لسائر الجهات المتمردة من أمثال الثائر النيكاراغوي (أوغستو سندينو Augusto Sandino).

مع انتهاء الحرب العالمية الثانية تعرض كل أمريكي تجاوز سن الأربعين لنحو خمس وعشرين سنة من الإشعاع المعادي للشيوعية، وهذه مدة تمثل وسطياً مدة الحضانة اللازمة لإنتاج مرض خبيث. إن معاداة الشيوعية طورت حياة لذاتها مستقلة عن أبيها الرأسمالي، وعلى نحو متزايد رأى صانعو السياسة والدبلوماسيون متوسطو العمر في فترة ما بعد الحرب، في العالم خارج بلدهم، عالماً مؤلفاً من

«شيوعيين» و «معادين للشيوعيين»، سواء أكانوا دولاً أم حركات أم أفراداً. إن هذه الرؤية الكاريكاتورية للعالم، رؤية الأمريكيين المتفوقين (Supermen) المكافحين للشر الشيوعي في كل مكان، قد تخرجوا من تمرين على الدعاية الصفيقة التي تقول بحتمية أخلاقية السياسة الخارجية الأمريكية.

حتى مفهوم «غير الشيوعي» الذي يعني ضمناً حداً ما من الحيادية قد مُنح بصورة عامة قدراً ضئيلاً من الشرعية في هذا المجال. «إن جون فوستر دلس .John Foster Dulles»، أحد أكبر مهندسي السياسة الخارجية الأمريكية بعد الحرب قد عبر عن ذلك بصورة ناجحة بطريقته المتسمة بالبساطة والنموذجية الأخلاقية، إذ قال: «بالنسبة لنا هنالك نوعان من الناس في العالم: هنالك أولئك الذين هم مسيحيون ويؤيدون حرية الاستثمار، وهنالك الآخرون» [١٤] وكما تؤكد الدراسات التي يحتويها هذا الكتاب، فإن دلس وضع هذه العقيدة قيد الممارسة الصارمة.

إن كلمة «شيوعي» (كما كلمة «ماركسي») قد بولغ في استعمالها وإساءة استعمالها من قبل القادة الأمريكيين والإعلام الأمريكي إلى حد جعلها واقعاً بلا معنى. (اليسار فعل الشيء ذاته مع كلمة «فاشستي»). ولكن مجرد وجود اسم لشيء ما - مثلاً الساحرات أو الصحون الطائرة - يعطيه قدراً معيناً من الصدقية.

في الوقت ذاته، كان الرأي العام الأمريكي - كما رأينا - قد جرت تهيئته تهيئة كاملة ليكون رد فعله بافلوفياناً (Pavlovianly) نسبة إلى إيفان بافلوف (Ivan Pavlov)، على التعبير القائل: هذا مع ذلك يعني أسوأ تجاوزات ستالين بدءاً من عمليات التطهير الواسعة وحتى معسكرات العمل كالرقيق في سيبيريا. إنه يعني - على حد قول مايكل بارنتي (Michael Parenti) - أن: «التنبؤات الماركسية - اللينينية الكلاسيكية (فيما يخص الثورة العالمية) تُعامل وكأنها بيانات تعبر عن النية وتوجه كل «الأعمال» الشيوعية في زمننا الراهن» [١٥]. إنها تعني: «نحن - ضدهم».

و «هم» يمكن أن تعني فلاحاً في الفلبين، أو رسام جداريات في نيكاراغوا، أو رئيس وزراء منتخباً بصورة شرعية في غويانا البريطانية، أو مفكراً أوروبياً، أو

محايداً في كمبوديا، أو شخصاً وطنياً إفريقياً، جميعهم - بشكل ما- جزء من المؤامرة الأحادية التكوين، وكل منهم - بطريقة ما- يهدد أسلوب الحياة الأمريكي، فما من أرض مهما صغرت مساحتها، أو اشتد فقرها، ومهما بعدت، إلا وتمثل هذا التهديد «التهديد الشيوعي».

إن الأهداف التي يعرضها هذا الكتاب تبين أنه لم يكن يهم إلى حد كبير أن الأحداث المحددة للتدخل - سواء أكانوا أفراداً، أو أحزاباً سياسية أو حركات أو حكومات - تسمي نفسها «شيوعية» أو لا تفعل ذلك، وكان أمراً قليل الأهمية أنهم أساتذة في المادية الديالكتيكية، أو أنه لم يسبق لهم إطلاقاً أن سمعوا باسم كارل ماركس، أو أنهم ملحدون أو رجال دين، وكان أمراً قليل الأهمية وجود أو عدم وجود حزب شيوعي قوي النفوذ في الصورة، أو أن حكومة ما تشكلت عن طريق ثورة عنيفة أو بواسطة انتخابات سلمية.. كل هؤلاء أهداف، وكلهم «شيوعيون».

وكان الأقل أهمية من كل ذلك أن جهاز المخابرات (الكي جي بي .K.G.B ) السوفييتي كان في الصورة، وكثيراً ما كان يجري التأكيد أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) تنفذ أعمالها القذرة كرد فعل بصورة رئيسية على عمليات (الكي. جي. بي) التي هي «أكثر قذارة». هذه كذبة صيغت ضمن سلسلة أكاذيب.. ربما كانت هناك حادثة منعزلة من هذا القبيل في مجرى حياة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ولكنها أبقت نفسها مخفية تماماً. إن العلاقة بين الوكالتين الشريرتين اتسمت بالأخوّة والاحترام بين الرفاق المتهنين أكثر مما اتسمت بالصراع وجهاً لوجه. لقد كتب جون ستوكويل (John Stockwell) الضابط السابق في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ما يلي:

«في الواقع، وعلى أقل تقدير في العمليات التي يغلب عليها طابع الروتين، كان أشد ما يخشاه الضباط المكلفون بمهمات، هو السفير الأمريكي وأعضاء سفارته، ثم البرقيات المقيدة لأعمالهم الواردة من المقر الرئيسي، ثم الجيران الفضوليون الذين يحبون الثرثرة في المنطقة السكنية المحلية، باعتبار هؤلاء تهديداً محتملاً للعمليات،

بعد ذلك تأتي الشرطة المحلية، ثم الصحافة، بعد كل هؤلاء تأتي (الكي.جي.بي). فطوال عملي على مدى اثني عشر عاماً ضابطاً مسؤولاً لم أرَ ولم أسمع عن وضع هاجمت فيه ال- (كي. جي. بي) أو عرقلت عملية من عمليات وكالة المخابرات المركزية» (١٦).

يضيف ستوكويل أن مختلف أجهزة المخابرات لا تريد «تعقيد» عالمها بقتل بعضهم بعضاً.

«لا خلاف، فإذا فرغ دولاب سيارة أحد ضباط وكالة المخابرات المركزية من الهواء في ظلمة الليل وعلى طريق منعزل، فإنه لن يتردد في قبول دعوة من أحد ضباط (كي. جي. بي) لإيصاله بسيارته. إن ملفات وكالة المخابرات المركزية حافلة بذكر مثل هذه العلاقات في كل محطة إفريقية تقريباً».

إن دعاة «تبادل النار في القتال» يقتربون أحياناً إلى حد التهلكة بالقول إنه إذا كانت لجهاز (كي. جي. بي)، مثلاً، يد في الإطاحة بالحكومة التشيكوسلوفاكية عام ١٩٦٨، فلا بأس عندها أن تكون لوكالة المخابرات المركزية يد في الإطاحة بحكومة تشيلي عام ١٩٧٣. هكذا يبدو وكأن تدمير الديموقراطية من قبل (كي. جي. بي) هو بمثابة إيداع أموال في حساب أحد المصارف، تجد وكالة المخابرات المركزية عندئذ مبرراً لسحب مبالغ من هذا الحساب.

إذن، ما هو الخيط المشترك بين الأهداف المتباينة للتدخل الأمريكي الذي أنزل بهذه الأهداف غضب أقوى دولة في العالم، وفي كثير من الأحيان قوتها العسكرية؟ في كل قضية تقريباً لها علاقة بالعالم الثالث، جاء على ذكرها هذا الكتاب، كان الموضوع، بشكل أو بآخر، هو سياسة «تقرير المصير» أي «: الرغبة المتولدة من الحاجة الملحوظة والمبدأ، لسلوك طريق تنمية مستقل عن أهداف السياسة الخارجية الأمريكية». وهذا، في الأعمّ، تجلى في:

(أ) الطموح إلى التحرر من التبعية الاقتصادية والسياسية للولايات المتحدة.

(ب) رفض تقليص العلاقات مع الكتلة الاشتراكية، أو قمع اليسار في الداخل، أو الترحيب بمنشأة عسكرية أمريكية على أراضيها. باختصار رفض أن تكون بيدقاً في الحرب الباردة.

(ج) محاولة تبديل أو تغيير حكومة ليس لديها أي من هذه الطموحات، أي حكومة مدعومة من الولايات المتحدة.

غني عن التأكيد أن السياسة المستقلة هذه كانت في نظر وأقوال العديد من زعماء وثوريي العالم الثالث سياسة لا تتساوى تعريفاً بالعداء لأمريكا، أو بمحاباة الشيوعية، وإنما هي ببساطة تصميم على اتخاذ موقف الحياد وعدم الانحياز إزاء القوتين العظميين - بيد أنه سيظهر- تكراراً، أن الولايات المتحدة غير مستعدة للتعايش مع هذا الطرح.

إن اربنز (Arbenz) رئيس غواتيمالا، ومصدق في إيران، وسوكارنو في أندونيسيا، ونكروما في غانا، وجاغان (Jagan) في غويانا البريطانية، وسيهانوك ملك كمبوديا.. هؤلاء جميعاً أصروا على أن يلتزم العم سام بالإعلان - دون لبس أو مواربة - أن هذه البلدان هي في صف «العالم الحر» وإلا سيتحمل العواقب. لقد عرض نكروما قضية عدم الانحياز على النحو التالي:

«إن التجربة التي حاولناها في غانا هي في جوهرها تجربة تنمية البلد بالتعاون مع العالم بأسره. عدم الانحياز يعني بالضبط عدم الانحياز. لم نكن نعادي بلدان العالم الاشتراكي على نحو معاداة البلدان الاستعمارية القديمة لها. لابد من أن نتذكر أنه في حين كانت بريطانيا تنتهج داخلياً سياسة التعايش مع الاتحاد السوفييتي، لم تكن هذه السياسة مسموحاً لها أن تمتد إلى المستعمرات البريطانية، فالكتب التي تبحث في الاشتراكية، والتي كانت تُنشر وتوزع بحرية في بريطانيا، كانت محظورة في الامبراطورية التي تستعمرها بريطانيا. وبعد أن استقلت غانا كان يفترض خارجها أن تستمر في اتباع المقاربة الأيدولوجية التقييدية ذاتها. وعندما

سلكنا على غرار سلوك البريطانيين في علاقاتهم مع البلدان الاشتراكية وُجهت إلينا تهمة ممالأة الروس وإدخال أخطر الأفكار إلى إفريقيا» (١٨).

هذا يعيد إلى الذاكرة مسألة الجنوب الأمريكي في القرن التاسع عشر، حيث تعرض كثيرون من الجنوبيين الأمريكيين لمضايقات شديدة إلى حد أن العبيد السود في الجنوب غادروا إلى الجانب الشمالي في الحرب الأهلية. كان هؤلاء الجنوبيون يعتقدون صادقين أن السود يجب أن يكونوا ممتنين لكل ما فعله من أجلهم أسيادهم البيض، وأنهم لابد كانوا سعداء وراضين بما تيسر لهم. لقد جادل الطبيب الجراح وأستاذ علم النفس الشهير الدكتور صاموئيل أ. كارترايت (Samuel A. Cart-wright) من ولاية لويزيانا، قائلاً: إن كثيرين من العبيد أصيبوا بنوع من المرض العقلي، سماه مرض «هوس التشرد أو التيه» (drapetomania)، وتشخيصه هو أنه رغبة لا يمكن التحكم بها في الهرب من العبودية. في النصف الثاني من القرن العشرين كان هذا المرض يسمى عادة في العالم الثالث «الشيوعية».

لعل انعكاس معاداة الشيوعية بالإكراه الأكثر تأصلاً هو الاعتقاد بأن الاتحاد السوفييتي (أو كوبا أو فيتنام الخ.. التي تتصرف وكالة عن موسكو) هي قوة سرية متربصة وراء واجهة تقرير المصير، وتحرك عنفوان الثورة، أو مجرد المتاعب العادية، هنا، وهنالك، وفي كل مكان، فثمة تجسيد آخر، على نطاق أكبر، مثل «التحريض من الخارج» والذي كان يبرز بانتظام عبر التاريخ.. إن الملك جورج وجّه اللوم إلى الفرنسيين بتحريض المستعمرات الأمريكية على الثورة.. مزارعون أمريكيون خاب أملهم ومحاربون قدماء يحتجون على ظروفهم الاقتصادية الشاقة بعد الثورة (ثورة الشايز Shays)، وُسموا بأنهم عملاء لبريطانيا انطلقوا لتدمير الجمهورية الجديدة.. إضرابات العمال في أمريكا أواخر القرن التاسع عشر وُجهت فيها التهمة إلى: «الفوضويين» و «الغرباء»، وخلال الحرب العالمية الأولى وجهت التهمة إلى «العملاء الألمان» بعد الحرب على «البلشفيك».

وفي الستينيات من القرن العشرين قالت اللجنة الوطنية الخاصة بأسباب ومنع العنف - إن ج. ادغار هوفر (Edgar Hoover .J) ساعد على انتشار وجهة نظر في أوساط الشرطة مفادها أن أي نوع من الاحتجاج الجماعي إنما ينجم عن مؤامرة يعلنها محرضون، هم على الأغلب شيوعيون، ويضللون الناس الذين لولا ذلك لكانوا يشعرون بالرضا عن حياتهم» (١٩).

الكلام الأخير هو العبارة المفتاحية، التي تنطوي في مضمونها على عقلية المؤامرة لدى الذين في موقع السلطة - أي الفكرة القائلة إن ما من أناس، سوى الذين يعيشون تحت حكم العدو، يمكن أن تنتابهم التعاسة وعدم الرضا عن أحوالهم مما يولّد عندهم الحاجة للجوء إلى الثورة، أو حتى الاحتجاج الجماعي، وإن التحريض من الخارج هو وحده الذي يضللهم في هذا الطريق.

وبناء على ذلك، إذا ما أقرّ رونالد ريغان بأن جماهير السلفادور لديهم كل سبب وجيه للانتفاض على وجودهم الذي لا يخاف الله، فإن ذلك يضع اتهامه موضع تساؤل، وكذلك إن الأساس المنطقي للتدخل الأمريكي هو مبدئياً (فقط) الاتحاد السوفييتي وحلفاؤه في كوبا ونيكاراغوا الذين يحرضون سكان السلفادور- تلك القوة التي تبدو ساحرة ويملكها الشيوعيون في كل مكان، ويستطيعون برفع قبضات أيديهم تحويل الناس المسالمين السعداء إلى رجال عصابات هائجين. تعرف وكالة المخابرات المركزية مدى صعوبة هذا الإنجاز العظيم. لقد حاولت هذه الوكالة، كما سنرى، أن تفجر ثورة جماهيرية في الصين، وكوبا، والاتحاد السوفييتي، وألبانيا، وأماكن أخرى في أوروبا الشرقية لكن في حالة واحدة لم يحالفها الحظ. إن كتبة الوكالة وجهوا اللوم في هذا الإخفاق إلى الطبيعة (المغلقة) للمجتمعات ذات العلاقة. أما في البلدان غير الشيوعية، فقد كان على وكالة المخابرات المركزية أن تلجأ إلى الانقلابات العسكرية أو إلى الألاعيب غير الشرعية لإيصال رجالها إلى السلطة. وهي لم تتمكن قط من إشعال نار الثورة الشعبية.

لكي تُقر واشنطن بجدارة وفضيلة انقلاباً في العالم الثالث كان عليها أن تطرح السؤال: لماذا لا تساند الولايات المتحدة جانب الثوار إذا كان لابد لها من التدخل؟ إن ذلك من شأنه ليس فقط أن يخدم بصورة أفضل قضية حقوق الإنسان والعدالة، بل إنه سيحرم الروس من دورهم المزعوم - فأية طريقة أفضل لإحباط المؤامرة الشيوعية الدولية؟ ولكن هذا سؤال لا يجرؤ أحد على تحديد من هو سائله في المكتب البيضوي، إنه سؤال يتعلق بالعديد من القضايا المبحوثة في هذا الكتاب.

بدلاً من ذلك، تظل الولايات المتحدة ملتزمة بسياستها المألوفة جداً وهي سياسة تثبيت -/أو دعم أحط الطغاة في العالم، الذين تجابهنا يومياً على صفحات جرائدنا أعمالهم البشعة ضد شعوبهم، ومجازرهم الوحشية، وأعمال التعذيب المنظمة والمعقدة التي يقومون بها، وجلد الناس علناً، ومشاهد الجنود والشرطة يطلقون النار على الجماهير، وفرق الموت المدعومة من الحكومة، وعشرات الآلاف من الأشخاص الذين يختفون، والبؤس الاقتصادي الشديد.. طريقة حياة هي في الواقع يحتكرها حلفاء أمريكا، بدءاً من غواتيمالا إلى تشيلي، والسلفادور وصولاً إلى تركيا وباكستان وأندونيسيا، هذه البلدان كافة لها مكان مرموق في «الحرب المقدسة على الشيوعية»، وجميعها أعضاء في «العالم الحر»، تلك المنطقة التي نسمع عنها كثيراً ونراها قليلاً.

إن القيود المفروضة على الحريات المدنية في الكتلة الشيوعية- على قسوتها - تبدو باهتة بالمقارنة مع «المحارق» Auschwitzs في «العالم الحر» وباستثناء المشهد الذهني الغريب الذي تسكنه مؤسسات معاداة الشيوعية لا يمكن أن يكون له أي شأن بالتدخلات الأمريكية المتعددة التي يفترض أنها ترتكب باسم قضية الصالح الأفضل.

من المثير للاهتمام أن نلاحظ أنه بينما اعتاد القادة الأمريكيون الكلام عن الحرية والديمقراطية في حين يدعمون الديكتاتوريات، كذلك يتحدث القادة الروس عن حروب التحرير وعن معاداة الامبريالية والاستعمار بينما هم لا يفعلون إلا القليل جداً لمساندة هذه القضايا فعلياً، بغض النظر عن الدعاية الأمريكية. يرغب

السوفييت بأن يفكر بهم الناس كمنافحين عن العالم الثالث، ولكنهم لم يفعلوا إلا القليل زيادة عن السير البطيء، بينما الحركات والحكومات التقدمية وحتى الأحزاب الشيوعية، في اليونان، وغواتيمالا، وغويانا البريطانية، وتشيلي، وأندونيسيا والفلبين وغيرها من البلدان تعرضت للإهمال بتواطؤ أمريكي.

في مطلع الخمسينيات من القرن العشرين، حرضت وكالة المخابرات المركزية على العديد من الغارات العسكرية على الصين الشيوعية. وفي عام ١٩٦٠ قصفت طائرات وكالة المخابرات المركزية، بدون أي استفزاز، دولة غواتيمالا ذات السيادة. وفي عام ١٩٧٣ حرضت الوكالة على ثورة دموية ضد حكومة العراق. هذه الأحداث عوملت في الإعلام الأمريكي، وبالتالي في العقل الأمريكي، وكأنها لم تحدث.

«لم نعرف ما الذي كان يحدث» هذه عبارة أصبحت عبارة مبتذلة (كليشة) تتردد على ألسنة الناس للهزء من أولئك الألمان الذين ادعوا أنهم يجهلون الأحداث التي جرت في ظل النازيين. مع ذلك، هل يؤدي جوابهم هذا غايته القصوى على نحو ما نريد أن نظن؟ إن من رجاحة العقل أن نفكر ملياً في أن الولايات المتحدة، في عصرنا هذا، عصر سرعة الاتصالات على الصعيد العالمي، تمكنت في مناسبات عديدة، من القيام بعملية عسكرية كبيرة، أو صغيرة أو الإقدام على شكل آخر من التدخل لا يقل صخباً في مردوده، دون أن يأخذ الرأي العام الأمريكي علماً بذلك إلا بعد انقضاء عدد من السنين، هذا إذا أتيح له أن يأخذ علماً بالأمر. في الأغلب كان الخبر الوحيد عن الحدث أو عن تورط الولايات المتحدة فيه، هو إشارة عابرة إلى حقيقة أن حكومة شيوعية قد وجهت اتهامات معينة، وهذا هو نوع «الخبر» الذي جرى تكييف الرأي العام الأمريكي بنبذه فوراً، وجرى تكييف الصحافة لعدم متابعته، مثلما جرى تعليم الشعب الألماني أن الأخبار التي تتردد خارج المانيا عن مساوىء النازيين لا تعدو كونها دعاية شيوعية.

إن التدخلات، فيما عدا استثناءات قليلة، لم تعكسها العناوين الرئيسية في الصحف ولا أخبار التلفزيون المسائية. في بعض الحالات، كانت تبرز نتفٌ من الروايات، هنا وهناك، ولكن نادراً ما كانت تُربط ببعضها بعضاً لتشكل كلاً متماسكاً

وتنويرياً، وهذه النتف تظهر في العادة بعد مرور وقت طويل على واقع الحقيقة، وتُدفن بهدوء ضمن روايات أخرى، وتُنسى بهدوء، ولا تبرز إلى المقدمة إلا إذا فرضت بروزها ظروف استثنائية، من مثل احتجاز الإيرانيين العاملين في السفارة الأمريكية وغيرهم من الرهائن الأمريكيين في طهران في عام ١٩٧٩، الأمر الذي أدى إلى فورة من المقالات التي عالجت موضوع الدور الذي لعبته الولايات المتحدة في الإطاحة بالحكومة الإيرانية في عام ١٩٥٣. وبدا الأمر وكأن محرري الصحف قد دُفعوا إلى التفكير على النحو التالي: «هيا، ماذا فعلنا في إيران لنجعل كل هؤلاء الناس يكرهوننا إلى هذا الحد»؟.

لقد تكرر ذكر إيران في ماضي أمريكا القريب، ولكن في غياب «نيويورك ديلي نيوز» New York Daily News أو «لوس أنجلس تايمز» Los Angeles Times اللتين تقبضان على ياقة قميص القارئ وتواجهانه بالمضامين الكاملة للعمل.. في غياب شبكة (ان. بي. سي) NBC التي تطرح الحدث أمام المشاهد في صور حقيقية لأشخاص حقيقيين.. في مثل هذا الغياب تصبح الحوادث أحداثاً لم تقع بالنسبة للغالبية العظمى من الأمريكيين، الذين يمكنهم أن يقولوا صادقين: «لم نعرف ماذا كان يحدث».

ذات يوم قال رئيس وزراء الصين السابق شو إن لاي: «أحد الأمور المبهجة في الأمريكيين أنهم ليست لهم البتة ذاكرة تاريخية».

لعل الحقيقة أسوأ مما أدرك شوإن لاي. خلال حادث معمل الطاقة النووية في (ثري مايل آيلاند) Three Mile Island في ولاية بنسلفانيا عام ١٩٧٩، أمضى الصحفي الياباني اتسو كانيكو Atsuo Kaneko، (من وكالة أنباء كيوتو اليابانية)، ساعات عديدة في لقاءات مع أناس جرى إيواؤهم في مبنى للعبة الهوكي - معظمهم أطفال، ونساء حوامل، وأمهات صغيرات السن. لقد اكتشف من خلال هذه اللقاءات أن لا أحد منهم سمع ما هي هيروشيما. كان مجرد ذكر اسم هيروشيما يقابل بنظرة حائرة [٢٠].

وفي عام ١٩٨٢ قال أحد القضاة في اوكلاند بولاية كاليفورنيا إنه ذعر عندما جرى استجواب نحو خمسين شخصاً مرشحاً ليكون بين المحلفين في محاكمة شخص ارتكب جريمة قتل عقوبتها الإعدام «فلم يعرف أحد منهم من هو هتلر» [٢١].

بالنسبة للقلة المتحكمة بالسياسة الخارجية في واشنطن، الأمر أكثر من مبهج. إنه شيء لا يستغنى عنه.

إن السجل الوافي للتدخلات الأمريكية مبهم إلى حد أنه عندما طلب في عام ١٩٧٥ من خدمة أبحاث الكونغرس التابعة لمكتبة الكونغرس أن تتعهد إجراء دراسة عن الأنشطة السرية لوكالة المخابرات المركزية حتى ذلك الحين، لم تتمكن من تقديم إلا جزء يسير جداً من حوادث ما وراء البحار التي تناولها هذا الكتاب خلال المدة ذاتها [٢٢].

وبالنسبة لكل هذه المعلومات التي وجدت طريقها إلى الوعي الشعبي، أو إلى الكتب المدرسية، والموسوعات، أو كتب المراجع الأخرى، قد فرضت أيضاً رقابة شديدة على هذه المعلومات في الولايات المتحدة.

إننا ندعو القارئ إلى التدقيق في الأقسام ذات العلاقة في الموسوعات الأمريكية الثلاث الكبرى وهي (أمريكانا Americana) و(بريتانيكا Britanica) و(كولايرز Colliers). إن صورة الموسوعات باعتبارها الخازنة النهائية للمعرفة الموضوعية تستحق عقوبة. إن المعادل لعدم الإقرار بالتدخلات الأمريكية قد يكون عائداً إلى حد كبير إلى تلك الأعمال الموقرة التي تستخدم معياراً مماثلاً لمعيار المسؤولين في واشنطن الذي يجد انعكاساً له في «أوراق البنتاغون». لقد أوجزت جريدة «نيويورك تايمز» هذه الظاهرة المثيرة جداً للاهتمام على النحو التالي:

«الحرب السرية ضد فيتنام الشمالية - على سبيل المثال- لا ينظر إليها على أنها انتهاك لاتفاقيات جنيف لعام ١٩٥٤ التي وضعت نهاية لحرب الهند الصينية الفرنسية، أو على إنها تتعارض مع الأقوال العلنية عن السياسة الصادرة عن مختلف الإدارات، فالحرب السرية، بما أنها تجري في السر، ليس لها وجود من حيث المعاهدات والمواقف العلنية. علاوة على ذلك، فإن الالتزامات السرية تجاه الدول الأخرى لا تعتبر خرقاً لسلطات مجلس الشيوخ لصنع المعاهدات، وذلك لأنها غير معترف بها علناً» [٢٣].

إن الرقابة المفروضة كأمر واقع والتي تجعل كثيرين من الأمريكيين جاهلين وظيفياً لتاريخ الشؤون الخارجية للولايات المتحدة، قد تكون أكثر فاعلية لأنها لا تتخذ الطابع الرسمي، أو لها صبغة التسلط أو التآمر، لإنها تحاك بطريقة فجة في نسيج التعليم والإعلام، ولا حاجة إلى مؤامرة، فمحررو «ريدرز دايجست» و «يوإس نيوز اند وورلد ريبورت» ليست بهم حاجة إلى الاجتماع سراً مع ممثل شبكة (ان. بي. سي NBC) في مكان آمن لمكتب التحقيقات الفدرالي FBI لوضع خطة لروايات وبرامج الشهر التالي، لأن الحقيقة ببساطة هي أن هؤلاء الأفراد ما كانوا ليصلوا إلى المراكز التي يشغلونها لو لم يكونوا قد سيقوا عبر نفس نفق التاريخ المعمى وخرجوا منه بنفس الذاكرة الانتقائية والحكمة التقليدية.

«إن الانتفاضة في الصين هي ثورة، إذا حللناها، نجد أن الدافع إليها هو الأشياء ذاتها التي كانت الدافع إلى الثورات البريطانية، والفرنسية، والأمريكية» [٢٤]. هذا الكلام هو تعبير عن شعور مديني كريم للسيد دين راسك، الذي كان آنذاك مساعد وزير الخارجية الأمريكي لشؤون الشرق الأقصى، وأصبح لاحقاً وزيراً للخارجية. وفي الوقت ذاته تماماً الذي أدلى فيه السيد راسك بهذا الكلام في عام ١٩٥٠، كان آخرون في حكومته ناشطين في حبك مؤامرة للإطاحة بالحكومة الصينية الثورية.

كانت هذه ظاهرة عامة. إن المرء يستطيع أن يعثر في العديد من القضايا الموصوفة في الصفحات التالية من هذا الكتاب، على أقوال لمسؤولين في واشنطن من مستويات رفيعة أو متوسطة تضع موضع التساؤل سياسة التدخل، التي تعبر عن مساوىء قائمة إما على أساس المبدأ (أحياناً الجانب الأفضل من الليبرالية الأمريكية)، أو القلق من ألا يؤدي التدخل إلى أية نتيجة تستحق الجهد، بل قد يؤدي إلى كارثة. لقد أعطيت هذه الأقوال المخالفة القليل من الوزن على نحو ما فعل صانعو القرارات في واشنطن الذين في الأوضاع العالمية المثيرة للجدل، يمكن الاعتماد عليهم في استعمال ورقة العداء للشيوعية. إنني إذ أعرض التدخلات بهذا الشكل، أعلن أن السياسة الخارجية الأمريكية هي ما تفعله السياسة الخارجية الأمريكية.

## مقتطفات من مقدمة طبعة عام ١٩٩٥:

في عام ١٩٩٣ اتفق لي أن قرأت مراجعة كتاب يتحدث عن أناس ينكرون أن المحرقة النازية حدثت فعلاً. كتبت رسالة إلى مؤلفة الكتاب، وهي أستاذة جامعية، لإبلاغها أن كتابها جعلني أتساءل عما إذا كانت تعلم عن حدوث محرقة أمريكية وأن إنكار حدوث هذه المحرقة قلل من شأن إنكار المحرقة النازية. وقلت لها إن إنكار المحرقة الأمريكية واسع النطاق وعميق الغور إلى حد أن منكريها لا يعلمون بوجود المدعين أو بادعائهم. مع ذلك فإن بضعة ملايين من الناس قد لاقوا حتفهم في المحرقة الأمريكية وملايين عديدة أخرى من الناس كان مصيرهم أن يحيوا حياة بؤس وعذاب نتيجة للتدخلات الأمريكية التي امتدت من الصين واليونان في أربعينيات القرن العشرين إلى أفغانستان والعراق في التسعينيات من القرن نفسه. وقلت إنني أرفق لها قائمة بتلك التدخلات التي هي بطبيعة الحال موضوع هذا الكتاب.

وعرضت في رسالتي أن أقدم لها نسخة من طبعة سابقة لكتابي مقابل نسخة من كتابها، ولكنها ردت قائلة إنها ليست في وضع يسمح لها أن تقبل هذا العرض. وهذا كان كل ما قالته. وهي لم تقدم لي أي تعليق على بقية ما ورد في رسالتي - أي ذلك القسم من الرسالة الذي يتحدث عن إنكار المحرقة الأمريكية - بل إنها أحجمت عن الإقرار بأني أثرت الموضوع. لقد كان أمراً فذاً، ويدعو إلى السخرية أن باحثة تناولت موضوع إنكار المحرقة النازية تنخرط في إنكار من هذا القبيل للمحرقة الأمريكية. ولقد أشكل عليّ السبب الذي دعا هذه الأستاذة الطيبة للرد على رسالتي.

من الواضح أنه إذا كان مقدراً لبحثي أن يقابل بعدم الاستجابة من مثل هذا الشخص، فإن هذا يعني أنني وبحثي كنا نواجه مشقة بالغة في صعود تل شديد الانحدار. ففي الثلاثينيات من القرن العشرين، ومرة أخرى بعد الحرب في الأربعينيات والخمسينيات، بذل المعادون للشيوعية من مختلف الأطياف في الولايات المتحدة، قصارى جهودهم لفضح جرائم الاتحاد السوفييتي، من قبيل محاكمات التطهير وقتل الناس بالجملة، لكن شيئاً قريباً قد حدث. لم تكن الحقيقة ذات

أهمية، لقد استمر الشيوعيون الأمريكيون ومناصروهم في مساندة الكرملين، وحتى إذا أخذنا في الاعتبار المبالغات والمعلومات الخاطئة التي واصل المعادون للشيوعية نشرها بانتظام، الأمر الذي أساء إلى صدقيتهم، فإن استمرار التجاهل/أو الإنكار من جانب اليساريين الأمريكيين ملفت للأنظار.

لدى انتهاء الحرب العالمية الثانية، واكتشاف الحلفاء المنتصرين معسكرات الاعتقال الألمانية، جيء في بعض الحالات بمواطنين ألمان من البلدان المجاورة إلى المعسكرات ليشاهدوا الوضع وجهاً لوجه، أكداس الجثث، والأفراد الذين ظلوا على قيد الحياة ولكنهم تحولوا إلى هياكل عظمية. إن بعض سكان البلدان المحترمين أرغموا على دفن الموتى. تُرى ماذا كان يمكن أن يكون التأثير على الحالة النفسية للأمريكيين إذا ما أُرغم مصدقو الحقيقة ومنكروها على مشاهدة عواقب نهاية نصف القرن الماضي من السياسة الخارجية الأمريكية؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الفتيان الأمريكيين الطيبين الأصحاء الذين ألقوا أطناناً لا تُحصى من القنابل على اثني عشر بلداً مختلفاً، على أناس لا يعرفون شيئاً عنهم - وكأنهم أشخاص في لعبة فيديو - قد عادوا إلى الأرض ليروا وليشموا رائحة اللحم البشري المحترق؟.

لقد أصبح من الحكمة التقليدية أن سياسات إدارة ريغان المعادية للشيوعية بلا هوادة، مع ما رافقها من حمى سباق التسلح، قد أدت إلى إنهيار وإصلاح الاتحاد السوفييتي والبلدان السائرة في ركابه. لعل كتب التاريخ الأمريكية قد شرعت في نقش هذه المقولة على الرخام. يقول أعضاء حزب المحافظين في بريطانيا العظمى إن مارغريت ثاتشر وسياساتها المتصلبة أسهمت بدورها في صنع المعجزة، كان الألمان الشرقيون مؤمنين أيضاً. عندما زار رونالد ريغان برلين الشرقية رحب به الناس هناك وهتفوا له وشكروه «على دوره في تحرير ألمانيا الشرقية». بل إن كثيرين من المحللين اليساريين، ولاسيما الذين يأخذون بمقولة المؤامرة، مؤمنون أيضاً. ولكن وجهة النظر هذه لا يؤمن بها الناس على نطاق عام، ويجب ألا يؤمنوا بها.

كتب غورغي ارباتوف، الذي كان لزمن طويل كبير الخبراء السوفييت في شؤون الولايات المتحدة وكندا، مذكراته في عام ١٩٩٢. وقد أوجز روبرت شير Robert

Scheer في باب مراجعة الكتب في جريدة «لوس أنجلس تايمز» جزءاً من هذه المذكرات على النحو التالي:

«كان ارباتوف يفهم فهماً جيداً إخفاقات الحكم الشمولي السوفييتي مقارنة باقتصاد وسياسة الغرب. ويتضح من هذه المذكرات الصريحة والمتميزة أن حركة التغيير كانت تتطور بثبات في أوساط السلطة العليا منذ وفاة ستالين. إن أرباتوف لا يقدم فقط دليلاً قوياً يثبت صحة المقولة المثيرة للجدل بأن هذا التغيير كان من شأنه أن يحدث بدون ضغط أجنبي، بل إنه يصر على أن تعزيز القدرة العسكرية للولايات المتحدة خلال سنوات رئاسة ريغان عرقل فعلاً هذا التطور»[٢٥].

يتفق جورج ف. كينان George F. Kennan مع هذا التحليل. إن هذا السفير الأمريكي السابق لدى الاتحاد السوفييني، وأبا نظرية «احتواء» نفس البلد، يؤكد أن «القول بأن أية إدارة أمريكية كانت تملك القوة الكافية للتأثير بصورة حاسمة في مسيرة الانتفاضة السياسية الهائلة في دولة عظمى أخرى، أو على جانب آخر من الكرة الأرضية، مثل هذا القول هو ببساطة قول صبياني». وهو يؤكد أن العسكرة المتطرفة للسياسة الأمريكية قد عززت موقف أصحاب الخط المتصلب في الاتحاد السوفييتي. «وهكذا فإن التأثير العام للتطرف في الحرب الباردة كان من شأنه أن يؤخر بدلاً من أن يُسرّع التغيير الكبير الذي استحوذ على الاتحاد السوفييتي»[٢٦].

ومع أن الإنفاق على سباق التسلح خرب بدون شك نسيج الاقتصاد السوفييتي المدني والمجتمع المدني في الاتحاد السوفييتي أكثر مما خرب في الولايات المتحدة، وقد كان هذا ما حدث على مدى أربعين عاماً عندما تولى ميخائيل غورباتشوف السلطة بدون أن يسبق ذلك أدنى تلميح إلى المصير الذي كان على وشك الحدوث. عندما سئل الكسندر ياكوفليف، (المستشار المقرب من غورباتشوف) عما إذا كان الإنفاق العسكري الأكبر في زمن إدارة ريغان، الذي اقترن بالكلام عن «امبراطورية الشر»، قد أرغم الاتحاد السوفييتي على اتخاذ موقف أكثر مهادنة، أجاب:

«لم يلعب أي دور، إطلاقاً. أستطيع أن أقول لك بأوفى قدر من المسؤولية إننا كنا، غورباتشوف وأنا، مستعدين لإجراء تغييرات في سياستنا، بغض النظر عن كون الرئيس الأمريكي هو ريغان أو كنيدي، أو شخصاً ما أكثر ليبرالية. لقد كان واضحاً لنا أن إنفاقنا العسكري كان ضخماً وأنه كان علينا أن نقلصه»[٢٧].

إنه لأمر مفهوم أن بعض الروس قد يترددون في الإقرار بأنهم أُرغموا على القيام بتغييرات ثورية من قبل عدوهم الأول، وأن يُقروا بأنهم خسروا الحرب الباردة. بيد أننا في هذه المسألة ينبغي ألا نعتمد على رأي إنسان فرد، سواء أكان روسياً أو أمريكياً، بل ينبغي لنا أن ننظر إلى الحقائق التاريخية.

ابتداء من أواخر الأربعينيات من القرن العشرين وحتى حوالي منتصف الستينيات، كان أحد أهداف السياسة الأمريكية التحريض على الإطاحة بالحكومة السوفييتية وبالعديد من أنظمة الحكم في أوروبا الشرقية. وقد جرى تنظيم وتدريب وتجهيز عدة مئات من الروس الذين يعيشون في المنفى، من قبل وكالة المخابرات المركزية، ثم جرى تسريبهم إلى وطنهم لكي يقيموا هناك حلقات جاسوسية، ولكي يثيروا الكفاح السياسي المسلح، ولكي ينفذوا أعمال اغتيال وتخريب، من قبيل إخراج القطارات عن خطوطها، وهدم الجسور، وتخريب معامل الأسلحة ومعامل الطاقة، وما إلى ذلك.

إن الحكومة السوفييتية التي ألقت القبض على كثيرين من هؤلاء الرجال كانت، بطبيعة الحال، تعرف تمام المعرفة من يقف وراء هذه الأعمال.

مقارنة بهذه السياسة، يمكن تصنيف السياسة التي اتبعتها إدارة ريغان بأنها سياسة تهدف لتحقيق الاستسلام الفعلي. مع ذلك يحق لنا أن نسأل ما هي ثمار هذه السياسة المعادية للشيوعية شديدة التطرف؟ إن المجابهات الخطيرة المتكررة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في برلين وكوبا وسواهما، والتدخلات السوفييتية في هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا، وإقامة حلف وارسو (في رد فعل مباشر

على حلف شمال الأطلسي - الناتو) وعدم وجود غلاسنوست Glasnost وعدم وجود بيرسترويكا Perestroyka وبدلاً منهما كانت هناك شكوك سريعة التفشي، وصفاقة، وعداوة على كلا الجانبين، وقد تبين أن الروس كانوا رغم كل شيء بشراً - أي أنهم ردوا على التشدد بتشدد مثله. والنتيجة الطبيعية لذلك هي: أنه كانت هناك على مدى سنوات عديدة علاقة وثيقة بين ودية العلاقات الأمريكية - السوفييتية من جهة، وعدد اليهود المسموح لهم بالهجرة من الاتحاد السوفييتي من جهة أخرى [٢٨].

إذا كان هناك من تُعزى إليهم التغييرات التي حدثت في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية إلى كل من التغيرات المفيدة والتغيرات المشكوك بها فإن هؤلاء هم بطبيعة الحال ميخائيل غورباتشوف والناشطون الذين ألهمهم بسياسته. وعلينا أن نتذكر أن ريغان كان في منصب الرئاسة مدة أكثر من أربع سنوات سبقت وصول غورباتشوف إلى السلطة وأن تاتشر كانت في رئاسة الوزارة مدة ست سنوات، ولكن لم يحدث شيء ذو بال في تلك المدة من حيث الإصلاح السوفييتي الذي تحقق بالرغم من موقف ريغان وتاتشر المعادي بلا هوادة للدولة الشيوعية.

كثيراً ما يحاول أحدهم قائلاً إنه من السهل عند النظر إلى الوراء أن نستهين بالهوس الأمريكي في الحرب الباردة من أجل أمن الدولة. بكل ما سبق ذلك من وسواس ومن الأمور العبثية، وتشكيل حلف شمال الأطلسي القوة العسكرية الدولية، وأنظمة الإنذار المبكر، وتمارين الغارات الجوية، وإقامة منصات القنابل النووية وطائرات يوتو، ولكن بدا الاتحاد السوفييتي بعد الحرب في أوروبا وكأنه في الواقع وحش مخيف يهدد العالم بارتفاعه عشرة أقدام.

إن هذه الحجة تتحطم على صخرة سؤال واحد، وهو سؤال كان هو الذي ينبغي أن يرد به الجميع في ذلك الحين، والسؤال هو: ما الذي كان يمكن أن يدفع السوفييت إلى غزو أوروبا الغربية أو قصف الولايات المتحدة؟ من الواضح أنه لم يكن هناك ما يكسبونه من مثل هذه الأعمال سوى التدمير شبه المحتم لبلدهم الذي كانوا يعيدون بناءه بشق النفس بعد الخراب الذي أحاق به في الحرب.

مع حلول الثمانينيات من القرن العشرين كان السؤال الذي لم يجرؤ أحد حتى ذلك الحين على طرحه قد أدى إلى إقرار ميزانية عسكرية بقيمة ٣٠٠ بليون دولار وإقرار حرب النجوم.

توجد في الحقيقة، وثائق داخلية عديدة من وزارة الخارجية ووزارة الدفاع الأمريكيتين، ومن وكالة المخابرات المركزية تعود إلى زمن ما بعد الحرب، حيث يوضح فيها المحللون السياسيون الواحد بعد الآخر، شكوكهم الجدية في «التهديد السوفييتي» ويكشفون في هذه الوثائق الضعف العسكري الروسي الحرج/أو يبدون شكوكهم في نوايا الروس العدوانية المزعومة في حين أن مسؤولين كباراً، من ضمنهم الرئيس الأمريكي، كانوا يقدمون علناً رسالة هي صراحة عكس ذلك [٢٩].

إن المؤرخ روجر موريس Roger Morris، العضو السابق في مجلس الأمن القومي الأمريكي في زمن الرئيسين جونسون ونكسون، وصف هذه الظاهرة بقوله:

«إن مهندسي السياسة الأمريكية كان عليهم أن يعرضوا قضاياهم بطريقة «أوضح من الحقيقة» وأن «يضربوا بالهراوة عقول كبار أعضاء الحكومة» - على نحو ما يقول وزير الخارجية دين اتشيسون Dean Acheson: إنهم يفعلون ذلك. لقد شرعت وكالة المخابرات المركزية الجديدة بإصدار أرقام مبالغ فيها عن النفقات العسكرية السوفييتية، وهي، بطريقة سحرية جعلت الاقتصاد السوفييتي العليل يهبط ويعلو في خرائط الحكومة الأمريكية. إن جيش ستالين الذي يستخدم مركبات تجرها الخيول - معداته متدنية، وطرقه محفرة بسبب الحرب، ومعنوياته متدنية - أضاف إليه البنتاغون فرقاً هي أشباح فرق، ثم عزا سيناريوات الغزو إلى قوات جديدة.

تقول دراسة لاحقة في الأرشيف أن المسؤولين الأمريكيين «بالغوا في تقدير قدرات السوفييت ونواياهم إلى حد أنه من المفاجىء أن يحمل أحد هذه التقديرات على محمل الجد».

مع ذلك، يصر الذين يجادلون في هذا الأمر، على وجود عدد كبير من المسؤولين في مناصب رفيعة كانوا ببساطة وبصدق لا يفهمون الإشارات الصادرة عن السوفييت. فالاتحاد السوفييتي كان، في نهاية الأمر، مجتمعاً بالغ القسوة والكتمان،

ولاسيما قبل وفاة ستالين في عام ١٩٥٣. في هذا الصدد، قال انوك باول Enoch Powell العضو في البرلمان البريطاني من حزب المحافظين، في عام ١٩٨٣، ما يلي:

«إن سوء التفاهم على الصعيد الدولي يكاد يكون بكامله طوعياً: أي أن التناقض في التعابير - سوء الفهم الدولي - هو تناقض، لأنه لكي تتعمد سوء الفهم، يجب على أقل تقدير أن تشك إن لم تفهم فعلاً ما تنوي إساءة فهمه.. (إن إساءة فهم الولايات المتحدة للاتحاد السوفييتي لها) وظيفة الحفاظ على خرافة) الخرافة القائلة: إن الولايات المتحدة هي «آخر وأفضل أمل للبشرية». إن صورة القديس جورج والتنين تكون باهتة بدون تنين حقيقي. وكلما كبر حجمه وكثرت حراشفه كان ذلك أفضل، وتكون صورته مثالية إذا ظهر لهب يخرج من فمه. لقد أصبح سوء فهم الاتحاد السوفييتي أمراً لزومياً لرفعة مكانة الأمة الأمريكية. بيد أنه لا ينظر نظرة محب للخير إلى من يسعى دون جدوى إلى حرمانهم منه» (٣١).

يمكن أن يقال أيضاً على سبيل المجادلة إن اعتقاد النازيين بالخطر الكبير المتمثل في «المؤامرة اليهودية الدولية» يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار قبل إدانة منفذي المحرقة.

كان كل من الأمريكيين والألمان يصدقون البروباغندا التي ينشرونها، أو يتظاهرون بذلك. عندما يقرأ المرء كتاب «كفاحي» Mein Kampt تذهله حقيقة أن جزءاً هاماً مما كتبه هتلر عن اليهود يشبه كثيراً الكتابة الأمريكية المعادية للشيوعية عن الشيوعيين: فهو يبدأ بالقول إن اليهود (الشيوعيين) هم أشرار ويريدون السيطرة على العالم، وبالتالي فإن أي سلوك يبدو مناقضاً لذلك إنما يعتبر خطة لاستغفال الناس وتحقيق غاياتهم الشريرة. إن هذا السلوك هو دوماً جزء من مؤامرة. وأناس كثيرون يتم الإيقاع بهم في هذه المؤامرة. وهو يعزو إلى اليهود قوة كبيرة تكاد تكون خفية لاستغلال المجتمعات والأوضاع الاقتصادية، وهو يوجه اللوم إلى اليهود في العلل التي تنشأ من الثورة الصناعية، أي الانقسامات الطبقية والكراهية، وهو أيضاً يندد بالصفة الدولية لليهود، وافتقارهم إلى المواطنة في دولة.

كان هناك في طبيعة الحال أولئك المشاركون في الحرب الباردة ومأخذ هؤلاء على الكرملين هو أن خطته الكبرى للسيطرة على العالم ليست بهذه الضخامة بحيث تهدف إلى غزو أوروبا الغربية أو قصف الولايات المتحدة بالقنابل. إن الخطة الأكثر حذقاً، وبإمكان المرء أن يقول بطريقة شيطانية إن الخطة الذكية، هي لتقويض البلدان من الداخل، بلداً إثر آخر، في سائر أنحاء العالم الثالث، وبالتالي تطويق العالم الأول وخنقه، والادعاء بأن هذا كله مؤامرة شيوعية دولية، «مؤامرة» قال السيناتور جوزيف ماكارثي «إنها على نطاق واسع إلى حد أنها تقزّم أية محاولة سابقة من هذا القبيل في تاريخ البشر».

إن هذا هو هدف التركيز الأول في هذا الكتاب: أي كيف تدخلت الولايات المتحدة في سائر أنحاء العالم لمكافحة هذه المؤامرة أينما وعندما كانت تطل برأسها القبيح.

لكن هل كانت هذه المؤامرة الشيوعية الدولية موجودة فعلاً؟ إذا كان لها وجود فعلي، فلماذا كان على المشاركين في الحرب الباردة من جماعات وكالة المخابرات المركزية والوكالات الحكومية الأخرى أن يذهبوا إلى هذه الحدود المتطرفة في التهويل؟ وإذا كان هؤلاء يعتقدون فعلاً وبصدق بوجود مؤامرة شيوعية دولية شيطانية وأحادية الكيان، فما الذي جعلهم يخترعون أموراً كثيرة حول هذه المؤامرة لإقناع الشعب الأمريكي والكونغرس وبقية العالم بوجودها الشرير؟ ولماذا كان عليهم أن يبتكروا، وأن يزرعوا أدلة، وروايات، وأن يخلقوا وثائق مزيفة؟. إن الصفحات التالية محشوة بالعديد من الأمثلة عن اختراقات الحكومة الأمريكية للإعلام الأمريكي حول «التهديد السوفييتي» و «التهديد الصيني» و «التهديد الكوبي». وقد كنا طوال الوقت، وفي آن واحد، يجري تخويفنا بقصص مرعبة: ففي الخمسينيات من القرن العشرين كانت هناك «فجوة القاذفات» بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، و «فجوة الدفاع المدني»، ثم جاءت «فجوة الصواريخ» وتبعتها «فجوة الصواريخ المضادة للصواريخ». أما في الثمانينيات من القرن العشرين، فقد كانت هناك «فجوة الإنفاق». أخيراً جاءت «فجوة الليزر» وهذه كلها كانت أكاذيب.

نعرف الآن أن وكالة المخابرات المركزية في زمن رونالد ريغان ووليام كيسي «سيّست باستمرار تقديرات المخابرات» لدعم انحياز حكومتهما إلى معاداة السوفييت وخنقت التقارير، حتى تلك التي وضعها محللو هذه الوكالة، إذا تناقضت مع هذا الانحياز، ونعلم الآن أن وكالة المخابرات المركزية والبنتاغون بالغا دوماً بأرقام قوة الاتحاد السوفييتي عسكرياً واقتصادياً، وبالغا أيضاً في عدد التجارب النووية السوفييتية وعدد «انتهاكات» معاهدات حظر التجارب القائمة، والتي كانت واشنطن آنذاك تتهم الروس بخرقها [٣٢] كل ذلك لخلق عدو أضخم وأشد دناءة وإعداد ميزانية أكبر للأمن القومي، ولتوفير الأمن والمعنى لوظائف المحاربين في الحرب الباردة.

في زمن ما بعد الحرب الباردة، وقيام النظام العالمي الجديد، يبدو الأمر حسناً بالنسبة لمجمّع المخابرات والصناعيين والعسكريين ولشركائهم في الجريمة على المستوى العالمي أي البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. لقد حصل هؤلاء على معاهدة نافتا NAFTA (أي مجموعة التجارة الحرة في أمريكا الشمالية) وما لبثوا أن حصلوا على منظمة التجارة العالمية. إنهم يملون على كامل العالم الثالث وأوروبا الشرقية التنمية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. إن رد فعل موسكو على الأحداث في أي مكان لم يعد أحد الاعتبارات التي تحد من حرية التصرف. إن قانون السلوك الخاص للشركات العابرة للحدود القطرية الذي أقرّته الأمم المتحدة قبل ١٥ عاماً، هو الآن في حالة وفاة. إن كل ما هو منظور الآن يجري تخصيصه. إن رأس المال يجوس العالم بحرية شرهة لم يتمتع بها منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى، حرية العمل بدون احتكاك مع الآخرين، والتخلص من الجاذبية. لقد جعلوا العالم آمناً بالنسبة للشركات العابرة للحدود القطرية [٣٣].

تُرى هل يعني هذا حياة أفضل لجماهير الناس من الحياة التي وفرتها لهم الحرب الباردة؟ هل هناك احترام للعامة من الناس أكثر مما كان متوفراً لهم منذ اقتلاعهم من الأجندة الكونية قبل قرون من الزمن؟ يقول رأس المال «بكل تأكيد»

عارضاً صيغة أخرى محسنة لنظرية «الحصول على القطرات»، أي المبدأ القائل: أن الفقراء الذين يجب أن يقيموا أودهم من الفضلات التي يتخلى عنها الأغنياء، يمكن تحسين أحوالهم بتوفير وجبات طعام أكبر للأغنياء.

إن صبية رأس المال، يهتفون مرحين بموت الاشتراكية، وهم يشربون شراب المارتيني. هذه الكلمة منع استخدامها في الأحاديث المهذبة. وهم يأملون ألا يلاحظ أحد أن كل تجربة اشتراكية ذات أهمية في القرن العشرين - بدون استثناء - إما سُحقت، أو أُسقطت، أو تعرضت للغزو، أو أُفسدت، أو شُوهت، أو تعرضت للتخريب، أو تمت زعزعتها، أو صارت الحياة مستحيلة بالنسبة لها، كل ذلك على يد الولايات المتحدة. ما من حكومة أو حركة اشتراكية - بدءاً من الثورة الروسية وحتى الحركة الساندينية في نيكاراغوا، ومن الصين الشيوعية وحتى حركة FMLN في السلفادور - لم يكن مسموحاً لأي منها أن تصعد أو تسقط بذاتها وبحسب استحقاقاتها، ولم تُمنح أي منها ما يكفي من الأمان لتتخلى عن حذرها من العدو بالغ القوة الموجود في الخارج بحيث يمكنها أن تخفف بالكامل وبحرية إشرافها في الداخل.

يبدو الأمر وكأن الأخوين رايت Wright أخفقا إخفاقاً كاملاً في تجربتهما الأولى للطيران بطائرة، لأن مصالح صناعة السيارات خربت كل تجربة طيران. آنذاك جميع الناس الطيبين الذين يخافون الله في العالم راقبوا ما حدث، وأخذوا علماً بالعواقب، أومأوا معاً برؤوسهم وبدافع الحكمة أنهم موافقون، وأنشدوا بورعٍ: لن يطير الإنسان.